المحور الثامن : المرأة في الغرب الإسلامي :

1- الوضع العام للمرأة بالغرب الإسلامي :

لم تحظ المرأة بكثير من الاهتمام في كتابات الرحالة المغاربة إلا بإشارات شحيحة، وهي على العموم سلبية، "ولم يشر هؤلاء الرحالة إلى مشاركة المرأة في الحياة العلمية والدينية مع أنه في هذه الفترة ظهرت أسماء كثيرة ممن انشغلن بالنحو والفقه والحديث ونظم الشعر، وكان بعضهن يتنقلن بين مصر والشام للسماع من كبار المحدثين والعلماء".

المرأة في البادية ببلاد المغرب هي أساس الأسرة تتولى مهمة تدبير الشؤون المنزلية من تحضير الطعام وصناعة الصوف من أغطية وألبسة صوفية لمقاومة برودة الجو . كما دفعتها الحاجة لصناعة الأواني الفخارية التي تستخدمها في الأكل والشرب، كما كانت تخرج لمساعدة الرجل في الفلاحة، أما عن مساهمتها في الحياة السياسية وقد نشير هنا إلى الحكام الحماديين الذين شيدوا القصور وأطلقوا عليها أسماء زوجاهتم، مثل قصر بلارة، الذي بناه المنور لزوجته وبالتالي تسمية قصور الحكام باسم النساء قد يكون دليل على تأثير هؤلاء النسوة على شخص الحاكم، وبالتالي على سياسة الدولة و ما ذكرته المصادر عن زينب النفزاوية ودهائها السياسي ونصائحها لأزواجها الأمراء، وما تداولته المصادر أيضا عن الدهاء السياسي لوالدة يغمراسن بن زيان حينما خرجت من القصر ودخلت في مفاوضات سياسية مع السلطان المريني وأنهتها لصالح ابنها.

نستخلص مما سبق أن المرأة كان لها دور مهم وكبير في مجتمع بلاد الغرب الإسلامي فلم يقتصر عملها على تدبير الأمور المنزلية، بل تعداه بمشاركتها في تنمية الاقتصاد بفضل الأعمال التي مارستها

وصف الحسن الوزاني في كتابه "وصف إفريقية" لنساء حواضر تادلة ومميزاتهن، وتحدثت عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للنساء.

هذاوتفيد المصادر أن الأسرة الأندلسية أولت اهتماما بالغاً للفتاة منذ نعومة أظفارها؛ ومن مظاهر الاهتمام مثلا العناية حتى بالأسماء والألقاب، وهكذا كان الأندلسيون يطلقون على البنات أسماء مستمدة من أسماء الزهور؛ فقد كان للمنصور بن أبي عامر مثلا ثلاث بنات سماهن : بهاراً ونرجساً وبنفسجاً، كما كانوا يحرصون على تنشئتهن على الصلاح ومكارم الأخلاق

ويجمع غالبية الباحثين أن المرأة الأندلسية نالت حظاً وافراً من التعليم، فنبغ عدد كبير منهن في العلوم والآداب والفنون، وكان يعهد إليهن بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم. ومن سوى ابن حزم الأندلسي وهو الذي ترعرع في كنف النساء ليؤكد لنا صحة ما ذكرته مصادر أخرى، فقد جاء على لسانه في كتابه " طوق الحمامة" ": "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري، لأني تربيت في حجورهن ونشأت في أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقل وجهي، وهن علمنني القرآن ورويننني كثيرا من الأشعار ودربنني على الخط".

وهكذا أصبح لنساء الأندلس دور بارز في الازدهار الحضاري الذي عم الأندلس فبرز منهن حاذقات بمختلف العلوم والفنون، وقد لمعت أسماء نساء عديدات في كل مجالات العلم والأدب. فكان منهن حافظات للقرآن الكريم، وناسخات، وعالمات في علم الحديث النبوي الشريف وروايته. إذن فجميع المصادر التي لدينا تؤكد أن المرأة الأندلسية كان لها دور مميز في ازدهار الثقافة وتطور المجتمع ولا ريب في أن ظهور مواهب تلك النساء من شاعرات ومدرسات وطبيبات وفلكيات يعود لسببين رئيسيين: أولهما البيئة الأندلسية المتطورة والسمحة التي وجدت فيها، وثانيهما الازدهار الثقافي والنهضة العلمية التي شملت حواضر الأندلس الكبيرة كقرطبة وإشبيلية وبلنسية وغرناطة ورندة. فكل هذه الظروف حفزت الناس على الأخذ بالعلم والاهتمام بنشره، والعناية الفائقة بالفنون على أنواعها وإنشاء المدارس والمكتبات العامة والخاصة واستقطاب العلماء والشعراء والفنانين من المشرق
ومن تلك العالمات ذكرت لنا كتب التاريخ العربي الأندلسي (وهي كثيرة ومعروفة ومتوافرة "كنفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، "والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وغيرها من المصادر) اسم عالمة مرموقة تعرف بـ عابدة المدنية وذكر بشأنها أنها كانت تروي عن أنس بن مالك عشرة آلاف حديث
ومما يدل على عظيم المكانة التي تبوأتها المرأة الأندلسية، كثرة القصائد التي نظمها الشعراء الأندلسيون فيها مدحاً وتغزلاً ورثاءً. ومن علو مكانتها كذلك أن غدت رغباتها أوامر، كـ اعتماد الرميكية زوج المعتمد بن عباد في قصة يوم الطين. وقد أشار المعتمد إلى هذه الحادثة وهو في أسره بأغمات .

ومن مظاهر حرية المرأة الأندلسية أنها كانت تلتقي الرجال في ساحات الدرس وفي السمر الأسري، كما كانت تخرج لزيارة المساجد والأسواق برفقة جواريها والتنزه في الحدائق العامة. ولم تكن النساء الأندلسيات سجينات بيوتهن، بل شاركن الرجال في عدة مجالات، وتبارين معهم شعراً ونثراً، وأسهمن في صياغة مجتمع أندلسي متميز
ولعل أوضح الأمثلة على تحرر المرأة الأندلسية : بروز عدد كبير منهن في مجال الشعر. فكن شاعرات جريئات لا يكتفين بالتلميح دون التصريح ولا بالإشارة دون الإعلان ، فمن هؤلاء الشاعرة ولادة بنت المستكفي التي جعلت من طراز ثوبها إعلانا عن الانطلاق والحرية
ومن تأثير النساء الأندلسيات على أزواجهن من الأمراء والخلفاء، أنهم بنوا لهن القصور المنيفة، والمدن المسماة على أسمائهن، كـ الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر على اسم حظيته وأنفق فيها أمولاً لا تحصى. ومن ملوك الطوائف من بلغ به التأثر بزوجه وشدة تعلقه بها، أن يشتق من لقبه اسمها، كالمعتمد بن عباد الذي سمى زوجته الرميكية ب "اعتماد" مشتقا من لقبه المعتمد، مثلما أشار عندما نظم أبياتا يبدأ كل
وإذا كانت سلطة النساء الأندلسيات ونفوذهن في الملوك والأمراء والقادة قد بلغت هذا الحد، فأنباء نساء العامة من من أبناء المجتمع الأندلسي من خلال المصادر الأندلسية القديمة تبرز جدارة نساء العامة في مواجهة قسوة الحياة وشظف العيش، فمنهن من كانت عطارة أو حارسة بستان أو عاملة في دور الخراج وكن يسمين بالخراجيات، ومنهن من

باعت اللبن لتعيل أبناءها، وشاعت مهنة الغزل عندهن واتخذ المغزل هواية فقد قيل: "نعم اللهو للمرأة المغزل

ولا بد لنا ونحن في مجال الحديث عن النساء أن نتحدث عن الجواري منهن، إذ كانت من بينهن نجد الراقصة المبدعة والموسيقية العازفة. واتسمت النساء الأندلسيات بالأناقة، فقد بدت المرأة الأندلسية أنيقة ولبست من الحلي والحلل وعرفت الرداءة والملاءة والشفوف المنسوجة بالذهب الخالص، ومثلما لبست الشفوف لبست القرطف وهو نوع من الملابس القصيرة. ولبست العصائب المرصعة بالجواهر والمنسوجة من الذهب والمكللة بالمرجان كناية عن الزينة الأندلسية الأنثوية. كما نقشت الأندلسية خدها بنقوش لتظهر أكثر فتنة، وتفننت في الوشم والخضاب ولبست الدملج، وفي كل هذا إشارة واضحة إلى بلوغ الأندلسيات مبلغا رفيعا من الحضارة وتمتعهن بذوق متميز، فضلاً عن أنهن كن شديدات الولع بالزينة التي دفعتهن إلى التأنق في سائر أحوال معيشتهن.

2- أهم المهن التي مارستها المرأة في الغرب الإسلامي:

مارست المرأة في الغرب الإسلامي عدة مهن منها التجارة في فترة العصر الإسلامي الوسيط فقد ذكرت كتب النوازل والحسبة ممارستها لبيع اللبن والحليب بإشبيلية وبيع الخضر والفواكه ، كما مارست الغزل والنسيج ومنها نسيج الحرير الذي اقتصر على أن تمارسه النساء فقط حسب نجلاء سامي النبراوي نقلا عن ابن حزم الأندلسي .

هذا وقد دخلت المرأة ببلاد المغرب والأندلس مجال الشراكة التجارية في أوجه متعددة ، فكثيرًا ما كانت تعقد الصفقات التجارية مع الرجال ، ولم تذكر كتب النوازل والحسبة شراكة نسائية نسائية ، بل كان دائما الطرف الثاني في الشراكة هو الرجال ،وأغلب أنواع الشركات التجارية التي مارستها النساء هي تجارة الأغذية ، حسب ما تناولته كتب النوازل ، في اشتراك النساء مع الرجال في شراء رحى لطحن الحبوب لأهل المدينة ، أو مشاركة رجل برأس مال للذهاب لصقلية والإتيان بطعام لبيعه للناس ثم يتقاسمان الربح ، فكانت المرأة لاتدخر جهدًا في توفير رأس المال اللازم للدخول في شراكة تجارية فإن لم تتوفر لديها السيولة النقدية اشتركت بحليها وجواهرها .

هذا ومارست نساء المغرب والأندلس مهنة النسخ وكانت تعرف المرأة التي تمارس هذه المهنة بالخطاطة ،ومظم الخططات اللائي ذكرن في المصادر كن يكتبن بالخط الكوفي واهتممن بنسخ المصحف الشريف والكتب الفقهية ،ومنهن سيدة بنت عبد الغني العبدرية (ت 647ه-1249 م)، من أهل غرناطة بالأندلس ، والسيدة درة التي كانت تعمل خطاطة في بلاط بني زيري وقامت بنسخ المصحف الشريف .

وقد كان للمرأة في العصر الوسيط الإسلامي بالمغرب والأندلس حضور ، سياسي وعسكري ، وكمثال على ذلك الدور السياسي بالمغرب الأوسط الذي قامت به والدة يغمراسن بن زيان الملقبة " بسوط النساء " حين ترأست وفد زياني للتفاوض مع

السلطان الحفصي ، أبو زكريا نيابة عن ابنها الذي أخرج من تلمسان سنة 640 ه /1242 م ، بعد استيلاء الجيش الحفصي عليها ،وتمكنت بحنكتها السياسية من انقاذ عرش ابنها وتوقيع معاهدة صلح مع السلطان الحفصي تنص على عودة ابنها إلى عرشه مقابل دفع إتاوة مالية قدرها 100 ألف دينار.